قطاع المفروشات في طرابلس: عراقة واستخدامات متجددة

د. مها كيال "ميدان صناعة الموبيليا ما زال واعدًا"

طرابلس، هي مدينة الحرف. لقد أخذت هذا اللقب عن جدارة من قبل المجلس العالمي للحرف اليدوية– منطقة آسيا والمحيط الهادئ منذ قرابة الثلاث سنوات، وهي خصوصًا "مدينة صناعة المفروشات" ذاع صيتها، ليس فقط في لبنان، بل حتى في المحيط العربي.

وصناعة المفروشات في هذه المدينة ضاربة في القدم. فقد اشتهرت طرابلس قديماً بالنجارة العربية، في بدايات تأثرها بالغرب وبإنتاجاته التي جرى تقليدها في المنطقة، وعرفت منذ بدايات القرن العشرين بالنجارة الفرنجية، نسبة إلى مصدر تقليدها كموضة للأثاث المنزلي.

أفردت د. مها كيال، المتخصصة في الأنثروبولوجيا، والأستاذة في الجامعة اللبنانية في كتابها "تقليد وتجديد– دراسة القطع الحرفي في طرابلس" حيزًا مهمًا حول هذه الحرفة في طرابلس، تعيد اليوم المؤلفة بلورتها لما كتب من قرابة التسعة عشر سنة، لنستشف على ضوئها أهلية اقتران هذه الحرفة باسم طرابلس.

مفروشات وورش.. في كل شارع

لا تخلو منطقة ويكاد لا يخلو شارع في طرابلس القديمة، من محلات حرفية متعلقة بصناعة المفروشات أو مرتبطة بها بشكل وثيق. ومن أكثر المناطق التي تتمركز فيها محلات الموبيليا، تذكر مها كيال التربيعة وسوق النحاسين والزاهرية. هذا على سبيل المثال، فكذلك لا يمنع هذا التعداد انتشار محترفات في القبة والتبانة والحدادين والنجمة. وتمركزت في الميناء حديثًا حرفة النجارة وكل ما يتصل بها من حرف تقليدية كالتنجيد، التدهيب، الترخيم، الحفر والرسم. هذا بالإضافة إلى امتدادها حتى للمناطق المحيطة ونعني الكورة، البداوي والمنية.

نرى المحلات في طرابلس تكتظ بأصناف منوعة من الأخشاب المصنّعة، حسب استخداماتها ونوع الأثاث والسعر المنشود، كالمضغوط واللاتيه واللميكا، المستخدمة بكثرة في تصنيع المفروشات.

وتلازم هذا الانتشار مع تزايد الانتاج المعد للبيع أو ما يعرف بالجاهز، إلى جانب بقاء النجارة "التوصاي" أي التي تصنع حسب الطلب الخاص للزبون.

نجارة عربية ومفروشات تقليدية تتحول الى "موبيليا"

بداية، شاعت في طرابلس النجارة العربية التي تلبي النمط المجتمعي لبيوت المدينة. بين النجارة العربية والعمارة اذًا رابطة وثيقة، فكانت تلك النجارة تهتم بتصنيع الأبواب، الشبابيك، خزائن المطبخ، والشقاعات التي كانت التسمية المختصرة للفتحات الصغيرة التي تعلو الأبواب او الشبابيك. كما اندمجت في العمارة الطرابلسية المشربيات والشعريات التي تغطي الشبابيك لتتيح للنساء رؤية الشارع من داخل المنزل دون أن يراهم المارة. طوّقت هذه النجارة حرفٌ عديدة كتصنيع البلاط اليدوي، الخفان، قوالب الجص وكل ما يتفرع منها من أنماط زخرفية وتزيينية، تقطيع الرخام ونقشه، التوريق، الدهان، والقرميد وغيرها من الحرف التي لا تزال حيّة في طرابلس.

حول الأثاث التقليدي، يقول رفيق التميمي ومحمد بهجت في كتابهما "ولاية بيروت"، أن أول معمل للأثاث في طرابلس أسسه عام 1910 رفيق أفندي فتال، تلاه المعمل الثاني لمحمد أفندي الشهال، الى أن توقف عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى.

وتبرز الباحثة الاختلاف في أنواع المفروشات قبل ايام الانتداب. فالبيوت حينذاك، كانت تتميز بطرازها المعماري العربي، وتفترش بالبسط والوسائد و"الدشكات"، التي ترتفع بشكل الصوفا، وتكون مزودة عادة بأدراج كبيرة، ويكسوها الفراش والوسائد القاسية المحشوة بالقش. حتى كان انتشار الأسرّة محصور جدًا، والأطفال تُصنع لهم المراجيح الخشبية لينامو أو السرير الهزاز. واحتفظت الأسر الطرابلسية بالملابس في الصناديق، ورصفت الفرش واللحف في خزانة تسمى ب"السمندرة". أما "النملية"، فكانت بمثابة براد طرابلسي تقليدي، مكون من خزانة لها أحجام متعددة، كان يوضع فيها الطعام ويعلق بشكل مرتفع عن الأرض، لحمايته من الفئران وتهوئته في الليل. وكانت تدعى طاولة الطعام ب"الطبلية" وهي طاولة قليلة الارتفاع عن الأرض، بينما طاولات السفرة يقتصر استعمالها كما هو غالبًا اليوم لمآدب الضيوف. وكان أثاث الميسورين مصنوعًا من الخشب الدمشقي المفصص أو المطعم بالصدف، وكذلك قطع الأثاث الاسطنبولية بخشبها المحفور. والميسورون يقتنون عادة المصبنة في غرف النوم، والسمندره، يفرشون فيها الفرش واللحف، والخزانة والأرائك.

وتقول د. كيال أن أكثر ما ساعد في انتعاش قطاع المفروشات هو تأثير نمط العيش الغربي على طرابلس، إذ علينا انتظار الانتداب الفرنسي لتشكّل الموبيليا حضورها الوازن. حتى أن كلمة "موبيليا" مستقاة من الأصل الفرنسي "meuble". وموقع طرابلس على البحر، جعلها تتمتع بمرفأ كبير أقنع تجار الخشب بالتمركز في المدينة، على خط المرفأ الذي أمّن ازدهار تجارة الترانزيت، بالأخص الى العراق وهذا ما يسر استقدام المواد الاولية. ثم كثر الطلب على المفروشات الطرابلسية، في لبنان كما في الخارج، وأمن تصديرها المرفأ نفسه، فتوسع القطاع بشكل مطرد خلال النصف الثاني من التسعينيات.

وبعدما دخلت الآلة على صناعة المفروشات، حسب أستاذة الانتروبولوجيا، تأسست في طرابلس نقابة أصحاب النجارة سنة 1954، فدخلت التخصصية في تصنيع الموبيليا، موكلة لعدة حرفيين دور في حلقة انتاج قطعة الأثاث: هناك منفذ النقش، والنجار، ومصمم الموديل، ورسام الخشب، وملبس القشرة، والحفيف، والدهان، والمنجد الافرنجي، يشتركون جميعهم في إنتاج قطعة أثاث تصدّرها طرابلس. وتنوه مها كيال أن هذا التداعي في التخصصات لم يمنع نشوء مصانع موبيليا تضم تحت كنفها كل هؤلاء المتخصصين، يعملون تحت اشراف "معلم" في الصنعة، أو تاجر، وممكن أن ينشئه مهندس ديكور.

تكييف مع القدرة المادية ومناطقية الأذواق

وبين الموبيليا "الشعبية" الرخيصة، والمبالغ في حفرها وألوانها من جهة، والموبيليا المسماة بالراقية من جهة أخرى، تبرز مها كيال اختلافًا نمطيًا آخر بين ستيل ومودرن. وبعكس القيمة العالية للخشب السميك (massif)، تشير اللغة المحكية بكلمة "بازاري"، الايرانية الاصل، إلى المفروشات المصنعة من خشب بخس، لذلك فإنها واسعة الانتشار في البازارات أي الأسواق.

واللافت كيف تتنوع أذواق المفروشات حسب المناطق. فحسب استطلاع ميداني قامت به د. كيال، تجذب أهالي البقاع والجنوب الموبيليا المتميزة بالحفر الضخم، وأهالي عكار والضنية يفضلون أيضًا هذا الحفر الضخم على الموبيليا الستيل أو المودرن على حد سواء. أما المتانة ونوعية المواد

فيضعهما أهل بشري والأرز في مقدمة المقاييس التي ترغبهم بشراء الأثاث، ليأتي الشكل في المرتبة الثانية، بينما يفضل أهالي بيروت الموبيليا ذات الطراز الفرنسي، المقرونة بأسماء ملوك فرنسا كلويس الخامس عشر والسادس عشر وغيرهما.

المفروشات والرأسمالية: تنافر وانسجام

ليس من الممكن تحييد قطاع المفروشات عن مواجهة النظام الاقتصادي الراهن. هكذا، تعتبر مها كيال أن هذه الصناعة الطرابلسية دخلت لعبة الرأسمالية الحديثة حيث يتضخم عدد المستهلكين، وتشتد المنافسة بين موردي المفروشات، فيتوخى منتج الموبيليا زيادة انتاجه وتسريعه، لينتج نماذج من الأثاث متماثلة في شكلها، بالجملة، كما في المصانع. وعلى ضوء هذا النمط، يلعب الاعلان دورًا حيويًا في تحريك تجارة المفروشات، لأن هذه السلع يلزمها التسويق الجذاب الذي يرغّب المستهلك باقتنائها.

بالموازاة معهد التطور التقني يظهر تغير في نظام التجمعات الحرفية، بما فيها صناعة المفروشات، حيث كان لكل حرفة "طوائف مهنية" أو "أصناف" لها شيخها في نهايات القرن السابع عشر وبدايات القرن العشرين. وأشارت الوثائق التاريخية المتداولة حول الدولة العثمانية أنّ الحرف في طرابلس وسائر الولايات الدمشقية كانت تعرف تنظيمًا داخليًا وطقوسًا للتدرج والترقي داخل الحرفة. من ضمن تلك التقاليد عملية "أخذ اليد" أي التدرب على الحرفة، التي تستتبع بعملية "الشد" و"التلميحة" في أحد البيوت أو البساتين، ليترقى الاجير الى صانع ثم معلم فيما بعد. غير أن أهم تلك المناصب في المنظومة الحرفية القديمة كان "شيخ مشايخ الحرف والصنائع". ثم ضعفت البنية التنظيمية التقليدية للحرف ففقدت شرعيتها حين سقطت السلطنة العثمانية، فانحسر تقييم المستوى الفني العام للحرف ولمهارات الحرفيين. كما أنّ توريث هذه الحرفة للأبناء أخذ بالتقلص، وصار الحرفي يتحفظ عن إعطاء أسرار مهنته للأجير أو للعامل.

الثقافة التجارية وأفق الابداع

وتستنتج مها كيال "ازداد الطلب على المفروشات ولكن ازدادت المزاحمة على صناعتها، ولم تعد الخبرة أو الحرفية وحدهما كافيتين، بل من الضروري أن يستمر الحرفي الطرابلسي في تطوير ثقافته العملانية وتغذيتها، منها ثقافة التسويق، والتعاطي مع الزبون، والثقافة التجارية.

ولا تغفل مها كيال أهمية الشق الابداعي الذي لطالما ميّز حرفيّي الموبيليا في طرابلس. لذلك، من المتاح اليوم توظيف هذه الملكة الابداعية ليخلق منتجو الموبيليا حاجات جديدة ومبتكرة تنسجم مع النمط الاستهلاكي المتفجر في كل بقاع العالم، طرابلس ضمنًا.

جودي الأسمر